المحاضرة : (الخامسة)
((موقف اللسانيين من الكليات والجزيئات))

يعود اختلاف المدارس اللسانية ، واتجاهاتهم في كثير من الأحيان إلى مواقف أنطولوجية (وجودية) فلسفية.

ويعد الحكم في تحديد السابق (الكليات ،أم الجزيئات؟) على وجه الخصوص مبدأ مؤثرا في الدراسات اللغوية قديمها ،وحديثها ، وتبلغ أهمية هذا الأمر حدا يؤدي تغيير الرأي فيه إلى الخروج عن المدرسة الفلسفية ، أو اللسانية المتَبعة ، ولعل عن الأمثلة التي يمن ذكرها هنا خروج اللساني المعروف كاتز عن عقلانية تشومسكي إلى الواقعية . ذهب كاتز إلى القول بأسبقية الجمل بوصفها كليات على القولات بوصفها جزئيات ، وكان ينظر إلى الجمل نظرة فلاسفة الرياضيات الأفلاطونيين إلى الأعداد ، حيث كانوا يعتقدون بوجودها السابق للمعدودات ، ويذهبون إلى القول بأسبقية وجود الحقائق الرياضية ، والمنطقية عما عرفه البشر من المنطق ، والرياضيات . ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه مما يترتب على هذا أن علم القواعد الذي يهتم بدراسة الجمل وما هو إلا "نظريات لكيانات مجردة ؛كما يذكر كانز ، وهو مفهوم ، وإن اتفق مع مفهوم تشومسكي في رأيه في موضوع اللسانيات التوليدية ، فإنه يخالفه في الاعتقاد بالوجود القبلي للجمل ، ووجودها المستقل ، والسابق للقولات اللغوية . ومن الأمثلة الأخرى التي يمكن ذكرها لتوضيح أهمية تحديد الموقف من أسبقية الكليات على الجزيئات ، أو العكس رأي ابن تيمية الذي يعتقد بأسبقية الجزيئات ، ويرى أن الكليات ما هي إلا نتاج لعملية عقلية يتم فيها تجريد الأفراد المندرجين تحت الكلي باستبعاد خصائصها المميزة ،والإبقاء على أوجه التمثال بينها . ولاشك أن لهذا الموقف صلة وثيقة بنظريته السياقية ، ونظريته في المجاز ، بل لا نبالغ إذا ربطنا هذا بمجمل آرائه ، ونظرياته اللغوية ، والفلسفية . ويشترك ابن تيمية في أصوله هذه مع الدراسات البراغماتية الحديثة ؛ الأمر الذي جعل نتائج دراساته في اللغة ، والنص متقاربة إلى حد كبير مع دراساتهم ، وهو ما يؤكد صحة دعوانا في هذه الدراسة ، وهي أن الأصول الفلسفية للنظريات اللغوية هي الموجّهة للاتجاهات المذهبية ، أو المدرسية .

لقد أدى عزل القولات اللغوية من سياقاتها لغرض بلوغ ضرب من الأمثَلة إلى إغراق في التجريد آل في النهاية إلى تصور مصطنع للغة الحقيقية . وهنا ينبغي أن نشدد على أهمية التفريق بين اللغة النظرية

(أو التقديرية)، واللغة الملاحظة (الحقيقية ،أو الفعلية .(وهو تفريق اقتراحه كارناب ، وأكده وندرليش ، وسبق أن ألمح إليه ابن القيّم في معرض رده على أهل التأويل ، ومناصري المجاز الذين خلطوا بين الكلام المقدر ، والكلام المستعمل .ومثلما فعل نحاة العربية ، وجمهور الأشاعرة الذين أولوا آيات الصفات ، وقالوا بالكلام النفسي أغفل التوليديون ، ومن سار سيرهم الخصائص السياقية المميزة للقولات اللغوية وأبحروا في غياهب التجريد. وهو أمر آل في نهاية المطاف إلى انعطافة قوية دعا إليها البراغماتيون ، والمهتمون بتحليل النص نحو دراسة أكثر واقعية وتجريبية تأخذ في اعتبارها السياقات الفعلية دون أن تغفل أهمية النمذجة في صوغ العلم. والفرق بين الأمثَلة ، والنمذَجة أن الأمثلة هي عملية مبدئية تصاغ بغض النظر إلى واقع الأمور ، والخصائص الحقيقية للأشياء ، أما النمذجة فهي مستوى أدني من التجريد تدرج فيها المتشابهات تحت نموذج واحد يجمع بين خصائص أفرادها . ويذكر وندرليش أنه " ليس هناك حالة حقيقية تتفق مع حالة مثالية (إلا على نحو تقريبي)، أما ما يتفق مع الحالات الحقيقية فهو النموذج " .والمشكلة التي نتعرض إليها عند الأمثلة هي الإفراط في التجريد ، وهو أمر يؤول في النهاية إلى صياغة ذهنية للمادة اللغوية مختلفة عن حقيقتها ، وقد يصاحب ذلك تفسيرات ، وتقديرات ، وتأويلات نظرية تغفل المبادئ ،

والأسس الحقيقية المفسرة للظاهرة اللغوية . ولعل هذا ما أدى بالفيلسوف غرايس ـ مثلا ـ إلى صوغ أسس خطابية في تحليله للأحاديث الكلامية ، كما أدى بمحللي النص إلى الاقتصار في دراستهم على تحليل الشواهد الحقيقية المأخوذة من الكلام الفعلي ، وأهملوا فكرة المتحدث المثالي عند تشومسكي ، كما آل ذلك إلى إعادة النظر في مفاهيم راسخة في الدراسات اللغوية ، والبلاغية منذ أرسطو إلى عصرنا هذا مثل وجود المجاز ، فقد ظهرت نزعات مشككة في صحة التفريق بين الحقيقة والمجاز صدرت عن مهتمين بالبراغماتية ، وفلاسفة اللغة ، والباحثين في الذكاء الاصطناعي ، ومن بينهم نذكر سبيربر وويلسون اللذين صرحا بوجود أسس قوية لإنكار فكرة المعنى المجازي.

ـ اللغة والكلام: يعد التفريق بين اللغة ، والكلام من الثنائيات المشهورة التي قدمها دو سوسور إلى الدراسات اللغوية ، فضلًا عن ثنائيات أخرى كالتفريق بين الدراسات التعاقبية ، والتزامنية . ويقصد بالكلام هنا ما ينشأ عن الاستخدام الفعلي للغة ؛ أي: ناتج النشاط الذي يقوم به مستخدم اللغة عندما ينطق بأصوات لغوية مفيدة. وبينما تتسم اللغة بالطابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع ، يحدث الكلام نتيجة نشاط فردي .

وعندما تستخدم قولة ما فإن القولة المستعلمة لها جانبان :

ـ **جانب ينتمي إلى اللغة :** وهو الذي يضمن أن المخاطبين يفهمون ما يقوله المتكلم بوصفه منتميا إلى مجتمعهم اللغوي ، ويتحدث لغتهم ، ويتمثل هذا الجانب في تقيد المتكلم بقواعد اللغة ، والمناويل اللغوية المتعارف عليها في لغته ، والمفردات المعجمية المصطلح عليها.

ـ **جانب ينتمي إلى الكلام :** وهو تركيبه لقولة معينة على نحو يحكمه عادة قصده الإبلاغي ، واختياره لمفردات معجمية ، ومناويل قواعدية بعينها واستثمار السياق لبيان مقصده . وثمة صلة بين التمييز بين اللغة ، والكلام من جهة ، والتفريق بين المعنى ، والقصد من جهة أخرى ، وهي صلة لم يشر إليها دو سوسور صراحة ، ولكنها ترسخت في الدراسات البراغماتية الحديثة التي استفادت من تمييز دو سوسور بين اللغة ، والكلام . ولكي نوضح هذه الصلة علينا أن نتصور سياقا لغويا يمكن بيانه كالآتي : (يجلس مجموعة من الطلاب في فصل دراسي مكيّف ، ويقف المدرس قريبا من زر جهاز التكييف ، وتشتد البرودة داخل الفصل ، فيبادر أحد الطلاب بالقول : " الجو بارد يا أستاذ ، (فيتوجه الأستاذ إلى زر المكيَّف ، ويضغط عليه لإغلاقه) ،ولعل جميع الطلاب(وكذلك مدرسهم)يدركون أن المعنى اللغوي لجملة "الجو بارد" هو الإخبار بشعور الطالب ببرودة الجو ، وأن المدَرس فهم منها أن الطالب يطلب منه بأسلوب مؤدب أن يغلق جهاز التكييف . وما يهمنا هنا في هذا المثال هو بيان أن معنى " الجو بارد " على المستوى اللغوي يختلف عما يقصد بها بوصفها قولة مستخدمة في هذا السياق . والجانب اللغوي في ما قاله الطالب هو تقيده باستخدام جملة اسمية معهودة في العربية مكونة من مبتدأ ، وخبر ، ومراعاته لمقتضيات القواعد الصرفية ، والنحوية ، واستخدامه للمفردات اللغوية في معانيها المصطلح عليها في العربية ، أما الجانب الكلامي فيها فهو أنه اختار هذا المنوال بالذات من بين مناويل أخرى ممكنة ، واستثماره للسياق الخارجي لإخراج المعنى اللغوي للجملة من الإخبار إلى طلب . وهكذا يمكن القول إننا عندما نتحدث فإننا في الواقع ننقل اللغة إلى كلام ، والجملة إلى قولة ، والمعنى إلى قصد ، ودلالات الألفاظ إلى إشارات . ولعله من المهم هنا أن نذكر أن القولة عندما تعزل عن سياقاتهم يتعذر علينا أن نفقه المقصود منها ، وإن أمكننا فهم معانيها .فعندما ننظر إلى قوله تعالى (قال بل فعله كبيرهم هذا) الأنبياء ٦٣.

بغض النظر عن السياق الذي وردت فيه ، فلا يفهم منها إلا أن شخصا ما ينسب فعلا ما إلى شخص ما هو أكبر المحيطين به ، أما إذا نظرنا إليها باعتبارها قولة فسنضطر إلى الرجوع إلى السياق الذي قبلت فيه ، وسندرك بعدها أن المتكلم هو إبراهيم عليه السلام ، وأنه يشير بكلمة "فعل" إلى كسر الأصنام ، وأن الضمير يشير إلى عملية الكسر ، وأن "هم" في "كبيرهم" تشير إلى الأصنام ، وأن هذا تشير إلى أكبر الأصنام الموجودة ، وأن القصد من كل هذه القولة تشكيك المخاطبين في اعتقادهم بألوهية تلك الأصنام ، وتوجيه انتباههم إلى عجز كبير الأصنام عن القيام بمثل هذا العمل ، وعجز سائر الأصنام عن الدفاع عن نفسها عند تعرضها للكسر ، والاستخفاف بعقولهم التي تتمسك باعتقاد ألوهية تلك الأصنام ، على الرغم من

عجزها عن الدفاع عن نفسها ، أو حتى الإخبار عمن كسرها . ولا يمكن لنا أن ندرك المقصود بكل هذه الإشارات ، والمراد من القولة إلا بإقحام العناصر الخارجية عن اللغة ، وهي المخاطِب ، والمخاطَب ، والسياق ؛ أي : ربط الجملة بزمان ، ومكان ، ومخاطبين ، ومقام تخاطبي ، وتحديد ما تشير إليه التعبيرات اللغوية الإشارية ، وبهذا الإقحام تكون عبارة "بل فعله كبيرهم هذا " قد خرجت من حيز اللغة إلى مجال الكلام

الفعلي.

ما ينتمي إلى اللغة	ما ينتمي إلى الكلام
الجملة	القولة
المعنى	القصد
الإحالات ، أو دلالات الكلمات	الإشارات

وثمة صلة بين تفريق دو سوسور بين اللغة ، والكلام الذي أثير في سنة ١٩١٦ ،وتفريق آخر قدمه تشومسكي بعد ذلك بخمسين سنة تقريبا بين الكفاية ، والأداء ، غير أنه توجد فروق جوهرية أيضا بين هذين التفريقين . وهو أمر كان له انعكاس على فروع المدارس اللسانية التي تقول بأي من التفريقين ، فالكلام في ثنائية دو سوسور يشير إلى ناتج الاستخدام الفعلي للغة ، وليس لعملية الاستخدام نفسها أي: أنه بتعبير النحاة من باب إطلاق اسم المصدر ، وإرادة اسم المفعول ، وهو ما يحمل من مفهوم الكلام عنده مفهوما جامدا غير ديناميكي ، وهذا ينسجم مع مفهومه للغة بأنها نظام من العلامات أو(الدوال) بدلا من عدَّها نظاما من الدلالات كما يراها علماء أصول الفقه مثلا . أما تشومسكي فيرى أن الكفاية هي التمكن من اللغة (بوصفها نظاما لا سلوكا) المخزونة في أذهان متكلميها السليقيين (أو من كان مثلهم إتقانا لتلك اللغة).

وهي نتاج التفاعل بين (القواعد العمومية) الموجودة في ذهن كل إنسان (تلك المسماة باللغة الملكة) التي يختص بها البشر ، وتورث جينيا من إنسان إلى آخر ، و ٢ـ عدد كاف من القولات النموذجية التي يمكن تحليلها بمساعدة معرفة الطفل الفطرية لمبادئ القواعد العمومية ومعاييرها . وينطبق الأداء عند تشومسكي على استخدام اللغة النظام . في حين ينطبق الكلام ـ عند دو سوسور ـ على نتاج استخدام النظام . ويرى جون لا ينز أن المطلوب ليس تفريقا ثنائيا بسيطا بين النظام ، ونتاجه ، بل تفريق ثلاثي لا يتميز فيه النتاج من النظام فقط ، وإنما من العملية (وهي الأداء ، أو السلوك ، أو الاستخدام ، إلخ) . وهذا التفريق الثلاثي (أي: التفريق بين النظام ـ العملية ـ النتاج) مهم جدا في علمي البراغماتية ، والدلالة.

ونظرا إلى أن التوليديين ينظرون إلى اللغة نظرة أكثر ديناميكية ، ويرون أن عملية توليد الجملة المحكومة بالكفاية تتم على مستوى اللغة ، وليس على مستوى الكلام ، فإن ما سمي بالعملية ، وما ينشأ عنها من نتاج عند تشومسكي إنما هما مفهومان أكثر تجريدا من مقابلهما : العملية ، والنتاج عند دو سوسور ، وأتباعه ، وذلك لأن العملية عند تشومسكي تتم على نحو تجريدي بحيث تبدو مستقلة عن الاستخدام ، والسياقات الفعلية للكلام . أما البراغماتيون فيعنون بعملية الاستخدام عناية كبيرة ، بل إن كلمة نفسها تعني " علم الاستعمال " . ولذا فإن الكثير منهم يرى أن التخاطب عملية لا تخلو من إخبار ، أو استفهام ، أو تسمية ، أو نحو ذلك مما يسمونه بأفعال الكلام . وبذلك يتطور المفهوم الجامد للكلام ـ كما شرحه دو سوسور ـ إلى عمل ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال ، وهو أمر يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحل محل نظائرها الجامدة في تراث دو سوسور ربما كان من أهمها استخدام مصطلح (القصد) بدلا من (المعنى) . وأصبح موضوع تحليل (المحاثة) بدلا من (الجملة) ، و أضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ (أو أصول) التخاطب لبلوغ كنه مراد المتكلم بدلا من الاقتصار على البنى اللغوية المجردة.

ـ **الاختلاف في طبيعة اللغة :** سبق أن ذكرنا أن اللغويين قبل دو سوسور كانوا ينظرون إلى اللغة على أنها مجموعة من الأصوات ، تلك العناصر المادية التي يمكن سماعها ، ونطقها ، وتتسم بخصائص فيزيائية مميزة ؛ أي: أنها جواهر ، وليست أعراضا إذا ما استخدمنا مصطلحات المناطقة . وأدّى إقحام دو سوسور عنصر النظام في اللغة إلى نشأة البنيوية فيما

بعد ، ثم تطور الأمر بعد ذلك عندما بدأ التعويل على خصيصة أخرى من خصائص اللغة ، وهي خصيصة الإنتاجية التي تتيح للمتكلمين توليد عدد غير محدد من الجمل . وقد تقرر في اللسانيات أن الإنتاجية هي إحدى السمات التي تختص بها اللغة البشرية ، وهي خصيصة تستلزم أن للمتكلمين حرية في إحداث جمل لم يسبق لهم أن سمعوها . وقد أدت هذه النظرة الجديدة إلى اللغة الطبيعية إلى تحديد معالم المدرسة التوليدية عندما أشار تشومسكي في سنة ١٩٥٧ إلى أنه منذ الآن سأعُدّ اللغة طائفة من الجمل (المتناهية ، أو غير المتناهية) ، كل جملة متناهية في طولها ، ومركبة من مجموعة متناهية من العناصر .